

العلاقة الجدلية بين الدين والثقافة

- مقارنة أنثروبولوجية -

The dialectic of the relationship between religion and culture

- Anthropological approach-

تاريخ النشر: 2026/04/30

تاريخ القبول: 2025/10/17

تاريخ الإرسال: 2025/01/12

غفور عبد الباقي

EMAIL : ghaffour@yahoo.fr ، جامعة تلمسان ، الجزائر ،¹

الملخص:

ارتبط الإنسان بالدين منذ الأزل، وباتت الحاجة إلى الدين والتدين حاجة فطرية عنده. فهو الموجه للسلوك الإنساني والنواة التي تشكل الجماعات الإنسانية. أما الثقافة فهي نتاج اجتماعي وإنساني، وهي مكتسبة ونامية ومتغيرة، بل هي كل ونسيج متداخل، وهي أفكار وأعمال متباينة في المضمون ومتشابهة في الشكل، نسبية ومثالية، انتقائية وتراكمية، وآليات التفاعل تقوم على التبادل والتعاون، والتماثل والإلزام والصراع. فهي مجمل التراث الاجتماعي، أو هي أسلوب حياة مجتمع. وعليه، لا يوجد شيء في حياة المجتمعات البشرية ألصق بالثقافة من الدين، إلى درجة جعلت العلماء يختلفون في تحديد نوعية هذه العلاقة. هل هي علاقة جزء بكل، أو علاقة كل بكل، أو هي علاقة تطابق في كل شيء، أو علاقة اختلاف؟

الكلمات المفتاحية: الدين؛ الثقافة؛ الإنسان؛ العلاقة.

المؤلف المرسل: غفور عبد الباقي الإيميل: ghaffour@yahoo.fr

Abstract:

Humans have been associated with religion since the earliest times, and the need for religion has become an innate necessity, serving as a guide for human behavior and the nucleus forming human communities. Culture, on the other hand, is the product of social and human interaction. It is acquired, grows, and varies, weaving itself into ideas and works that are similar in form and relatively hierarchical. The mechanisms of interaction are based on exchange, cooperation, representation, commitment, and speed. It represents the collective social heritage or the style of social life. There is nothing in human society more closely tied to culture than religion. Scholars have debated the specific nature of this relationship: Is culture part of religion, or is religion part of culture? Or is their relationship mutually reinforcing, with neither being a follower or a leader?

Keywords: Religion, Culture, Human, Relationship.

1. مقدمة:

الدين ظاهرة ثيولوجية ارتبطت بالإنسان منذ الأزل، والحاجة إلى الدين والتدين حاجة فطرية عند الإنسان العاجز الفاني الذي يتطلع دائماً نحو خالقه، يستمد منه العون، فيبدأ بممارسة الطقوس والمعتقدات، وينظر إليها على أنها السبب الذي يجعله دائم الصلة بمفارقة (الإله). ويرى العديد من الباحثين أن الدين هو النواة التي تشكل الجماعات الإنسانية، بل ويذهب الكثير منهم لاعتبار أن "الإنسان حيوان متدين" لأنه يتبع تعاليم ويعتنيها بحكم الطبيعة التي ينتهي إليها، كل هذا جعل الدين يكتسب أهمية قصوى، ويشغل مجالات كبرى، الأمر الذي جعله محل اهتمام الباحثين والدارسين في كل المجالات.

ويمثل الدين ثقافة كاملة لشعب أو أمة أو حضارة، ليس في كونه مجموعة نصوص وتعاليم وقيم فحسب، بل بما هو كيان مجسد اجتماعيا، ومبلور بالممارسة في أنماط وتقاليد وأفعال، أي من حيث صيرورته نظاما من الممارسات فضلا عن كونه نظاما من التصورات، بغض النظر عن طريقة استيعابه وطرق التعبير عنه من طرف المؤمنين به.

ويعتبر الدين في غالب الأحيان هو الموجه للسلوك الإنساني، أي أن سلوك الأفراد في المجتمع دائما أو غالبا ما يحدث تحت تأثير المفاهيم الدينية المسبقة التي يكتسبها الأفراد في حياتهم اليومية بصفتهم أعضاء في المجتمع أو كما يسميها علماء الاجتماع عن طريق التنشئة الاجتماعية.

أي أن الدين هو في الأساس المرجع الأصلي في تفسير الأفعال الاجتماعية والتبرير المرجعي لتلك الأفعال، فهو الدافع للسلوك والاجتماع والمفسر لتلك العلاقات القائمة في المجتمع الواحد.

ويعتقد كل من ماركس وفير ودوركايم أن: "الدين في جوهره يمثل واقعا موهما ومضللا ولكنه عظيم الأثر في الحياة البشرية".¹ (غيدنز: 2005).

كما أشار مالك بن نبي إلى دور الدين والفكرة الدينية في الاستمرار الاجتماعي والنهوض الحضاري والثقافي للمجتمعات بقوله: "أن الدين هو التعبير التاريخي والاجتماعي للتجارب المتكررة عبر القرون، وهو يعتبر في منطق الطبيعة أساس جميع التغيرات الإنسانية الكبرى؛ لذلك فنحن لا نستطيع تناول الواقع الإنساني من زاوية المادة فحسب، لأن رسالة الإنسان في الحياة الاجتماعية أن يكون عاملا نفسيا زمنيا، فهو لا يؤثر فيها تبعا لوجوده الزمني فحسب، أعني تبعا لحاجاته المادية، بل يؤثر طبقا لوجوده النفسي، أعني طبقا لحاجاته الروحية، وتلك حقيقة الإنسان كاملة..."² (الخطيب. بدون سنة).

أما الثقافة فهي قبل كل شيء نتاج اجتماعي وإنساني، وهي مكتسبة ونامية ومتغيرة، بل هي كل ونسيج متداخل، وهي أفكار وأعمال متباينة في المضمون ومتشابهة في الشكل، نسبية ومثالية، انتقائية وتراكمية، وآليات التفاعل تقوم على التبادل والتعاون، والتماثل والإلزام والصراع.

والثقافة في الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع هي: "التراث البشري الاجتماعي المتراكم عبر العصور الذي تتناقله الأجيال، من السلف إلى الخلف، وهو تراث يختص به الإنسان ويميزه عن الحيوان، وبعبارة أخرى، الثقافة هي كل ما أنتجه وابتكره الناس، والذي لا وجود له في طبيعتهم الفطرية بالولادة، ويكتسبه الإنسان الفرد في المجتمع عن طريق التنشئة الاجتماعية، وليس له وجوداً أصلاً في طبيعته الفطرية البيولوجية.

يقول سبنسر: "يمكن تعريف الثقافة مبدئياً على أنها طريقة حياة المجتمع بالمعنى الواسع لكلمة حياة، وثقافة مجتمع تشمل وسائل المعيشة، اللغة، أساليب التفكير والعمل، القيم والمعايير، العادات والتقاليد، الشعائر والطقوس، الرموز والأعراف، القوانين ومختلف النظم الاجتماعية التي تضبط العلاقات بين الناس والسلوك في المجتمع الإيجابي والسلبي، الجيد والردىء، الفضيلة والرذيلة، الحسن والقبح، الصدق والكذب، الصداقة والعداوة، السرقة والأمانة ...".³ (لبصير. 2010).

ويعد الأنثروبولوجي البريطاني إدوارد تايلور (Edward Burnett Taylor 1832-1917م) أول من نحت تعريف علمي للثقافة، وهو الذي يعتبر من طرف الكثير من الباحثين مؤسس الأنثروبولوجيا الثقافية الحديثة، حيث يقول في كتابه "الثقافة البدائية" (Primitive culture) (1871م): "الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يتضمن المعرفة، والمعتقد والفن والأخلاق والقانون والعادات، وأي قدرات يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع".⁴ (أبو زيد. بدون سنة).

والمعنى المبسط لمفهوم الثقافة هو طريقة معيشة مجتمع ما، سواء مجتمع بدائي أو متقدم؛ فالثقافة من وجهة النظر الأنثروبولوجية هي مجمل التراث الاجتماعي، أو هي أسلوب حياة مجتمع. وعلى ذلك فإن لكل شعب في الأرض ثقافة، بمعنى أن له أنماطاً معينة من السلوك والتنظيم الداخلي لحياته، والتفكير، والمعلومات التي اصطلحت عليها الجماعة في حياتها، والتي تناقلتها الأجيال المتعاقبة عن طريق الاتصال والتفاعل الاجتماعي.

مما تقدم يتضح أنه لا يوجد شيء في حياة المجتمعات البشرية ألصق بالثقافة من الدين، فالدين بلغ من تأثيره في الثقافة وتأثرها به درجة جعلت العلماء يختلفون في وصف أو تحديد نوعية هذه العلاقة.

هل الثقافة جزء من الدين، أم أن الدين جزء من الثقافة؟ أم أن لكل من الثقافة والدين علاقة خاصة تربط هذا بتلك بكيفية متكافئة ليس فيها تابع ولا متبوع؟ أم هي علاقة تطابق أم علاقة ترابط؟

ولكل اتجاه حججه ومبرراته في نوعية التقسيم والترتيب الذي يرتئيه لوضع هذا أو ذاك، وهو ناتج أصلا عن المنطلق الذي ينطلق منه كل واحد من أصحاب الاتجاهات الأربعة التي تفترضها كالاتي:

2. علاقة الدين بالثقافة.

إن البحث في العلاقة الموجودة بين الدين والثقافة، هو بحث بالغ الأهمية، إذ يشكل جدلا لا ينتهي حتى يومنا هذا، حيث تنتاب العلماء حيرة عند التعرض لتحديد العلاقة بين الدين والثقافة وأيهما يؤثر في الآخر؟ أو أيهما ناتج عن الآخر؟ أو أيهما الأصل وأيهما الفرع؟ ويمكننا الوقوف على هذا الجدل ومناقشة هذه الأسئلة من خلال الاتجاهات الأربعة الآتية:

1.2 الاتجاه الأول: الدين أشمل من الثقافة:

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الدين أساس للثقافة، حيث أن الدين بما فيه من قيم وارتباطات بالعالم العلوي والأرضي ومن أحكام وتشريعات وقواعد وسلوكيات، هو الذي يتحكم في كل الظواهر الثقافية في المجتمع الذي يدين بهذا الدين أو ذاك.

وبهذا المعنى يكون الدين سابقا على الثقافة بالضرورة، ومتحكما فيها إن كليا أو جزئيا، بقدر تمسك المجتمع بتعاليم الدين السائدة؛ ومن ثمة تكون العلاقة بين الدين والثقافة لدى هذا الاتجاه هي علاقة جزء بكل، ويكون الدين هنا هو الكل والثقافة هي الجزء مهما تبلغ هذه الثقافة من التعقيد.

ويشترك في هذا الاتجاه العديد من العلماء الذين يزعمون أنه ليس هناك ثقافة نشأت بدون الفكرة الدينية، لأنه لا يتصور اجتماع إنساني معين مهما كان بسيطا، إلا وكانت الفكرة الدينية حاضرة وهي المشكل الأساسي والأول للاجتماع.

ومن المعروف أن من الأوائل الذين أشاروا إلى وجود علاقة بين الثقافة والدين هو الشاعر والناقد الانجليزي توماس. أسي. إليوت (Thomas.S.Elyot) (1888-1965م) الذي قدم شبه نظرية في هذا المجال، شرحها في كتابه "ملاحظات نحو تعريف الثقافة" الصادر عام 1948م، حيث أظهر الاهتمام بهذه العلاقة والدفاع عنها والتأكيد عليها.

ولذلك يقول زكي ميلاد في كتابه "المسألة الثقافية": "والأقرب أن إليوت كان يحاول بناء نظرية في هذا الشأن، بشأن تعميق العلاقة بين الثقافة والدين، ليكون الدين حاضرا باستمرار بروحانيته وتراثه وتاريخه في كل محاولة لتعريف الثقافة، أو تكوين فكرة عنها".⁵ (ميلاد. 2012).

وفي هذا الجانب يؤكد إليوت بأن كل ثقافة ظهرت كانت إلى جانب دين، حيث يقول: "لم تظهر ثقافة ولا نمت إلا بجانب دين، ومن هنا تبدو الثقافة نتيجة من نتائج الدين، أو الدين نتيجة من نتائج الثقافة، طبقا لوجهة نظر الناظر".⁶ (ميلاد. 2012).

ويضيف قائلا: "من الخطأ تصور أن الثقافة يمكن حفظها وبسطها وتنميتها بغير دين، ومن الخطأ أيضا الاعتقاد بأن المحافظة على الدين ورعايته لا شأن لهما بالمحافظة على الثقافة ورعايتها".⁷ (إليوت. 2001).

نلاحظ أن إليوت ربما أراد أن يقول أنه لا يمكننا بحال من الأحوال إخراج الدين من حياتنا اليومية ومن سلوكياتنا الاجتماعية، فمكانته تستدعي ربط كل فعل اجتماعي أو سلوك يومي بمقتضيات دينية وتفسيرات عقائدية تحدد لنا في نفس الوقت مسار تلك الأفعال مهما كانت بسيطة، إلى تلك الأشد تعقيدا في الحياة الاجتماعية للمجموعات والمجتمعات على حد سواء.

فإليوت من خلال مدافعتة عن المسيحية خاصة والدين عامة، يؤكد على مكانة الدين في المجتمع؛ فالدين قوة رئيسية في خلق ثقافة مشتركة بين شعوب متعددة الثقافات.

فالمسيحية حسب رأي إليوت هي التي جعلت أوروبا على ما هي عليه، وهي التي جلبت لأوروبا العناصر الثقافية المشتركة، وفي المسيحية نمت الفنون، وتأصلت قوانين أوروبا، وليس لتفكيرنا- كما يقول إليوت- عن أوروبا معنى أو دلالة خارج الإطار المسيحي.

كما يرى إليوت أنه قد لا يؤمن فرد أوروبي بأن الإيمان المسيحي حق، ولكن ما يقوله ويصنعه ويأتيه، كله من تراثه في الثقافة المسيحية، ويعتمد في معناه على تلك الثقافة.

ويظهر الاندفاع والحماس في كلام إليوت حين يقول: "ما كان يمكن أن يُخرَج فولتير أو نيتشه إلا ثقافة مسيحية، وما يظن أن ثقافة أوروبا تبقى حية إذا اختفى الإيمان المسيحي اختفاء تاما، وإذا ذهبت المسيحية فستذهب كل الثقافة الأوروبية، ولو بددنا - كما يضيف - أو طرحنا تراث أجدادنا من الثقافة المشتركة فلن يغيننا، ولن يقرب بيننا كل ما عند أبرع العقول من تنظيم وتخطيط." ⁸ (إليوت، 2001).

ويبرهن إليوت على هذه الفكرة بالإشارة إلى أنه حين ينقسم الدين فرقا وتنمو هذه الفرق من جيل إلى جيل، تنتشر بذلك ثقافات متنوعة؛ وبسبب العلاقة التي يصفها إليوت بالوثيقة بين الدين والثقافة، فهذه العلاقة تجعل ما يحدث في أحد الاتجاهين يحدث في الاتجاه الآخر." ⁹ (ميلاد، 2012).

لهذا، فحريٌّ - حسب إليوت - أن نجد الانقسام بين الثقافات المسيحية مثيرا لمزيد من فواصل العقيدة والتحلة. و يعد انفصال شمال أوروبا ولاسيما إنجلترا عن كنيسة روما، تحولا في نظر إليوت عن التيار الرئيسي للثقافة. فتكوين دين هو تكوين ثقافة كذلك. ويتضح هذا جليا - في كثير من المجتمعات - في الفعل الذي يقوم الدين به في عملية تشكيل ثقافات محلية داخل المجتمع الكبير، أو ما نسميه بالثقافة الفرعية التي تتشكل من خلال الانتماء إلى فرق دينية معينة ظهرت أصلا من خلال الدين الذي يسود في مجتمع ما.

فالوحدة الدينية حسب رأي إليوت كالانقسام الديني، يمكن أن يتفق كل منهما مع ازدهار الثقافة أو انحلالها، فالدين الواحد قد يساعد على تبادل التأثير بين الثقافات المتعددة بما يفيد كلا منها، ويساهم في تنميتها والمحافظة عليها أيضا. ¹⁰ (ميلاد، 2012).

ومن الناحية المعاكسة يرى إليوت أن كثيرا من المكاسب التي يصفها بالكبرى للثقافة قد حُقِّقت منذ القرن السادس عشر في ظروف انعدام الوحدة الدينية، بل إن بعضها يظهر بعد تداعي الأسس الدينية للثقافة، كما هي حال فرنسا في القرن التاسع

عشر. ولا نستطيع، والكلام لـ إليوت، تأكيد أن هذه المكاسب أو مثلها روعة، كان يمكن تحقيقها لو بقيت وحدة أوروبا الدينية.¹¹ (ميلاد. 2012).

ومن شدة حضور الدين ووجهة النظر الدينية في كتابه " نحو تعريف الثقافة "، وجد إليوت أنه بحاجة إلى أن يقدم استدراكا لكيلا لا يفهم أنه يلتزم وجهة النظر الدينية والمسيحية خصوصا، في تحليله للأفكار والمعاني، وفي تأمله للقضايا والمشكلات، وأنه يلتزم ويقدم وجهة نظر عالم الاجتماع، وحسب قوله: "إنني أحاول ما أمكن تأمل مشكلاتي من وجهة نظر عالم الاجتماع، لا من وجهة نظر المدافع عن الدين المسيحي ... وحين أتناول أمور المسيحية فما ذاك إلا لأني مهتم اهتماما خاصا بالثقافة المسيحية وبالعالم الغربي وبأوروبا وإنجلترا".¹² (إليوت. 2001).

ويضيف إليوت: " لا يوجد إنسان يمكنه أن يتخلص تخلصا تاما من وجهة النظر الدينية؛ لأن المرء في آخر الأمر إما مؤمن أو غير مؤمن، وإذن لا يمكن لأحد أن يكون مبرا من الميل تماما، كما ينبغي للاجتماعي المثالي أن يكون، وبناء على ذلك يجب على القارئ أن يحسب حسابا لأفكار المؤلف الدينية ".¹³ (ميلاد. 2012).

2.2 الاتجاه الثاني: الثقافة أشمل من الدين.

وهو اتجاه مناقض للاتجاه الأول كما هو واضح، يرى أصحابه أن الثقافة أعم وأشمل في مجالاتها الحياتية من الدين، إلى جانب أن الثقافة - بمعناها العلمي الواسع كما سبق تحديده- هي ضرورة لكل المجتمعات الإنسانية مثل اللغة، وأنها موجودة في كل المجتمعات البشرية مهما تكن بدائية، إلا أن الدين ليس موجودا بالضرورة في كل مجتمع بشري، حيث إن هناك مجتمعات وثنية لها ثقافة ولغة بالضرورة، ولكن ليس لها دين أو لا تدين بدين أو هي علمانية؛ ومن ثمة تكون العلاقة بين الدين والثقافة - عندما يكون للمجتمع دين معين يدين به كل أو بعض أفراد- علاقة جزء بكل، وهنا يكون الدين جزءا من الثقافة مهما تكن درجة تأثيره قوية أو ضعيفة في المجتمع.

وهذا ما ذهب إليه ماثيو آرلوند (Matthew Arnold) (1822-1888م) في كتابه " الثقافة والفوضى " (culture and anarchy)، الصادر في 1869م.

فأرنولد يوحي إلينا بأن الثقافة أشمل من الدين، وأنه ليس إلا عنصرا ضروريا يعطي تكويننا أخلاقيا وشيئا من تكوين انفعالي للثقافة، وهي القيمة النهائية.¹⁴ (إليوت. 2001).

وعليه فالثقافة هي الأصل، تنشأ عفويا في كل مجتمع، صغيرا أو كبيرا، إبان مراحل تكوّن المجتمع وتماسكه، بصرف النظر عن المستوى المعيشي أو المعرفي لذلك المجتمع. فمن رحم الثقافة عند نزوجها، يتولد الدين.

لقد حاول أرنولد حسب تقدير البعض شجب ما استشعر أنه نزعة إلى الفوضى واللاشرعية في الثقافة الفيكتورية. ففي الوقت الذي وجد أرنولد نفسه في موقف الدفاع عن الثقافة، وجد إليوت نفسه في موقف الدفاع عن الدين.

وذهب الفيلسوف الألماني هيربرت ماركوزه مذهب أرنولد بتساؤله: أليس في اختزال الثقافة إلى مجرد دين اغتيال للعقل والإنسان واختزال للوجود الإنساني وتحويله إلى "إنسان ذو بعد واحد"، ولكن "البعد الواحد للإنسان" هذه المرة لن يكون نتيجة عقله الأدائي والتقني وما أحدثه من اغتراب، وإنما نتيجة تفشي "الجهل المقدّس" على حد عبارة الفيلسوف الفرنسي المعاصر أوليفييه واغتراب الإنسان في البعد الديني.

3.2 الاتجاه الثالث: الفصل أو التطابق بين الثقافة والدين.

يرى أصحابه أن العلاقة بين الدين والثقافة هي علاقة كل بكل، ولكنها علاقة تطابق واختلاف في نفس الوقت بين جزء من كل مع جزء من كل آخر؛ أي أن الثقافة تمثل كلا مستقلا والدين يمثل كلا مستقلا وبينهما أجزاء متطابقة فيما بينها وأجزاء مختلفة فيما بينها دون أن يكون الدين جزءا من الثقافة أو تكون الثقافة جزءا من الدين، للأسباب والحجج الواردة لدى أصحاب الاتجاه الأول والثاني.

مع العلم أن نظرة هؤلاء العلماء والباحثين إلى الدين إذا كانت متفقة من حيث وجود العلاقة، فهي ليست كلها متفقة في المنطلق بالنسبة لمفهوم الدين من حيث هو منزل من أعلى بطريقة الوحي، أم هو ظاهرة اجتماعية من صنع البشر دون أن تكون لها علاقة بما وراء الطبيعة، أي عكس ما هو راسخ في أذهان المؤمنين بالديانات السماوية وخاصة الإسلام.

ولذلك نجد علي عزت بيجوفيتش¹⁵ يتكلم على علاقة الدين بالثقافة فيقول: " الثقافة هي تأثير الدين على الإنسان أو تأثير الإنسان على نفسه ... والثقافة هي الخلق المستمر للذات ... " ¹⁶ (بيجوفيتش. 1994).

ففكرة بيجوفيتش عن الثقافة أنها تتطابق مع الدين وتتماهى معه، أو أنها تتناغم مع الدين وتتوافق معه، أو أنها تنتصر إلى الدين وتدعو إليه. أي أن بيجوفيتش يريد من الحديث عن الثقافة الحديث عن الدين، أو أنه يريد أن ينتصر إلى الدين من خلال فكرة الثقافة، أو أنه يريد أن يرسخ فكرة العلاقة أو الاندماج بين الثقافة والدين. وجميع هذه التصورات ممكنة ولها أساس في نظرية بيجوفيتش حول الثقافة.

وقد ظل بيجوفيتش يلفت النظر باستمرار إلى هذه القضية قاطعا و متمسكا بها، وأنها تمثل نظريته في كتابه " الإسلام بين الشرق والغرب "، إذ يقول: " والنظرية هي أنه بحكم المنطق الداخلي للأشياء، يتوازى كل من التطور والحضارة والعلم والطوبيا مع الإلحاد، بينما يتوازى الخلق والثقافة والفن والأخلاق مع الدين " ¹⁷ (بيجوفيتش. 1994).

فالثقافة عنده هي الشعور الأبدي بالاختيار والتعبير عن حرية الإنسان، وهذا الرأي يطابق رؤيته عن الدين، التطابق الذي يقول عنه: " أما الثقافة وفقا لطبيعتها الدينية، فتميل إلى التقليل من احتياجات الإنسان أو الحد من درجة إشباعها، وبهذه الطريقة توسع في آفاق الحرية " ¹⁸ (بيجوفيتش. 1994).

وهذا ما تكلم عليه ماكس فيبر عندما تكلم عن العقلنة والنموذج المثل الذي اشتهر به. فلم تستطع المجتمعات أن تتجاوز الدين في حياتها الاجتماعية وبالتالي في صياغتها الثقافية بالرغم من هيمنة العقلنة على الصناعة الاجتماعية وتطور السلوك الإنساني؛ ولذلك هناك ضمن نظرية فيبر للنشاط ما يلي: " لإشكالية الاستقلالية التي هي في الغالب غير معروفة: إذ كانت عقلنة العلاقات الاجتماعية إجراء مزدوجا، والذي هو، بعيدا على إضعاف التقاليد ... ولذلك توضح السوسيولوجيا الفيبرية للدين على وجهين الحدود المنيعية لعملية عقلنة النشاط الاجتماعي أولا، حتى وإن كانت تحولات الكيانات الكونية الكبيرة تخضع لضغوطات قوية للعقلنة، (نسقية المعتقدات، عقلنة الطقوس، برطقة رجال الدين، الخ) ... من جهة أخرى، فإن تحولات الوعي الديني لا تنبثق فقط من المنطق الداخلي للعقلنة ... " ¹⁹ (راينو، 2009).

فلا يمكن بحال من الأحوال وخاصة في عصرنا الحديث، فصل الدين عن المشهد الثقافي العام في الحياة الاجتماعية رغم التطور والعقلنة والازدهار، فالدين من وجهة نظر فيبر هو الأساس حتى وإن لم يظهر أحياناً كمؤثر مباشر على السلوك الاجتماعي والصناعة الثقافية للمجتمع.

ويرى إلبوت أنه من الخطأ أن نفصل أو نطابق بين الثقافة والدين، حيث يقول في هذا الصدد: " لكي نفهم نظرية الدين والثقافة، يجب أن نعمل على تجنب الخطأين المتعاقبين: خطأ جعل الدين والثقافة شيئين منفصلين بينهما علاقة، وخطأ المطابقة بين الدين والثقافة " ²⁰ (إلبوت. 2001).

ويرى إلبوت أن التطابق الكلي والتام بين الثقافة والدين إنما يحصل في المجتمعات التي يمكن وصفها بالبدائية، ويبقى هذا التطابق حسب رأيه في مستوى اللاوعي. ويضيف: " ولعل ما يدفعنا لاعتبار الدين والثقافة شيئين مختلفين هو تاريخ تغلغل الإيمان المسيحي في الثقافة الإغريقية الرومانية، وهو تغلغل كانت له آثار عميقة في تلك الثقافة على السواء؛ ولكن الثقافة التي اتصلت بها المسيحية الأولى كانت هي نفسها ثقافة دينية في دور الانحدار، ولهذا - مع اعتقادنا بأن الدين الواحد يمكن أن يمد ثقافات شتى- يحق لنا أن نسأل إن كان من الممكن أن تظهر ثقافة ما إلى الوجود أو تحافظ على نفسها بدون أساس ديني؛ ولنا أن نمضي إلى أبعد من ذلك فنسأل: أليس ما نسميه (ثقافة) لشعب ما ودين هذا الشعب هما مظهران مختلفان لشيء واحد ؟ إذ الثقافة في وجودها تجسيد لدين الشعب " ²¹ (إلبوت. 2001).

4.2 الاتجاه الرابع: علاقة الدين بالثقافة هي علاقة متكافئة.

يرى أصحابه أن علاقة الثقافة بالدين هي علاقة متكافئة، أي علاقة كل بكل، أو علاقة الند بالند. وحجة أصحاب هذا الاتجاه تتمثل في أن الثقافة و إن كانت أهم من الدين في مجالاتها الواسعة، من حيث التعدد والتنوع الذي يشمل جوانب الحياة الإنسانية في أي مجتمع قائم، ولا يقتصر على جانب - روحي أو سلوكي - دون الآخر. فإن الدين له من التأثير في المجتمعات التي يسود فيها - في المجالات التي تدخل ضمن ضوابطه الروحية والقيمية والسلوكية - على الأنماط الثقافية في المجتمع ما لا تملك الثقافة من عوامل

التأثير في الدين بأي حال من الأحوال. ومن هنا كانت الثقافة أهم من الدين في الشمولية وتعدد المجالات، وكان الدين أكثر تأثيراً في بعض الأنماط الثقافية السائدة المتصلة بضوابطه أو بأوامره ونواهيه. وأصحاب هذا الاتجاه يثبتون العلاقة دون أن يتمكنوا من تحديد نوعية هذه العلاقة.

الدين ثقافة كاملة، فهو يعبر عن رؤية للعالم، للطبيعة والوجود والإنسان، وهو كذلك أيضاً لأنه يقدم تصوراً لبناء الاجتماع الإنساني على نحو يغطي أحياناً أدق تفاصيل هذا الاجتماع اقتصاداً وسياسة، وأخلاقاً، وأحوالاً شخصية. ليس بهم إن سعت العقيدة الدينية إلى بناء أمة "روحية" - شأن المسيحية - أو إلى بناء أمة "اجتماعية وروحية" - شأن الإسلام، بل الأهم أنها قامت على تعاليم رسمت للمنتسبين إليها تخوم الجائز وتخوم الممنوع، وقذفت في "روعهم" الجمعي مبادئ تحولت إلى قواعد صارمة للفكر والسلوك، وأفكاراً تحولت إلى عقائد راسخة لا تقبل المراجعة في جانبها اللاهوتي، حتى وإن كانت تقبل بعض التغيير في الجوانب المتصلة بميدان الاجتماع المدني.²² (بلقريز. 1998).

الدين هنا يمثل ثقافة بوصفه نمطا من المعرفة بالوجود الطبيعي والاجتماعي، وهو بذلك يختلف عن سواه من أنماط المعرفة كالعلم والفلسفة والأسطورة وسواها؛ فله مسلماته التي لا يقوم الإيمان بغير الإقرار بها، وله طريقته الخاصة في بناء أحكامه، وهي لا تفهم بغير ربطها بنمط الاستدلال فيه.

إنه يفرض على مؤمنيه الذين يعتبرهم رعية سلسلة من المعتقدات ذات الطابع الروحاني، يفترض بها أن تلعب دور الموجه بالنسبة إلى أعمال الفرد في الإطار الاجتماعي والإنساني؛ إنه ينطلق من فرضيات مسبقة هي فرضيات الإيمان، وعلى من يقبل بها أن يعتمد إلى تبني سلسلة من الفرائض تقيد مسلكه الاجتماعي.²³ (معتوق. 1991).

إنه ثقافة إذاً بوصفه نمطا "مغلقا" من القيم والعادات والطقوس والشعائر، أي طريقة ثابتة الملامح في ممارسة الحياة وفي بناء الاجتماع وإعادة إنتاجه. وهو يمثل في الحاتين - بنية عقلية كاملة للمجتمع بالمعنى الأنثروبولوجي الكامل للكلمة، أي نمطا من التفكير والسلوك يكتسب منطقاً ذاتياً خاصاً، يتمتع فهمه أو تعليقه بمعزل عن شبكة المعاني والدلالات الخاصة به.²⁴ (معتوق. 1991).

وبقدر ما يقوم الدين بتشكيل الثقافة وتعبئتها يقوم أيضا بشحنها بالرموز والمضامين والقيم، بل يسهم في تشكيل حقلها الخاص داخل الاجتماع المدني، والذي ليس بالضرورة أن يكون دينيا خالصا، بل هو في الواقع الموضوعي يتكون بالتفاعل مع الحقل الاجتماعي، بما يحمله من ضغوط وتحديات واستجابات تفضي إلى تعبئة "المخيال الجماعي" برموز وقيم وعادات وتقاليده من شأن استثمارها في الحقل الثقافي أن يعيد التوازن إلى الذات، ويشحنها بالتالي على الأداء الأفضل والأمثل. وهذا يفسر كيف يلعب الدين دورا محوريا في الأزمات الكبرى، وكيف يجري استدعاؤه والاحتفاء بنماذجه في التحديات التي تهدد التوازن الشخصي أو الاجتماعي. في هذه الحالة يمثل الدين طاقة تعبوية هائلة لشحن الحقل الثقافي، وهو يمتلك نماذج لها قدرة استنهاضية فعالة في مجال الصراعات وفي توفير المناعة والصمود والصبر.

إذا ثمة حالتان يمثل الدين في الأولى نسقا كاملاً يمد المؤمنين بأنماط متكاملة في ما يتعلق بالقيم وإدراك الوجود، ويمثل في الثانية عنصرا فاعلا وقدرة دينامية داخل نسق أشمل يتمثل في الاجتماع المدني بأبعاده السياسية والوطنية والقومية والإنسانية. وإدراك الفارق بين الحالتين لا يعني أن هناك انقطاعا بينهما، أو انفصالا منهجيا في آلية اشتغالهما، لكن يعني أن فهم "المجال الحقلي" لكل منهما ضروري لإدراك حركة الثقافة وديناميتها موضوعيا. ففي الحالة الأولى نحتاج إلى تحليل معرفي - ديني، فيما نحتاج في الحالة الثانية لفهم الواقع تحليلا سوسيو - ثقافيا، يكشف آليات اشتغال الثقافة الدينية في البنية الاجتماعية، واستثمارها بالتالي للحقل الديني في عملية بناء الثقافة وحركتها والأفعال الناتجة عنها.

3. خاتمة:

نخرج من هذا الموضوع المتشعب الخاص بالعلاقة بين الدين والثقافة إلى القول بأن هذه العلاقة إذا كان الجميع متفقا على وجودها، فإن نوعية هذه العلاقة بالتحديد غير متفق عليها، بسبب اختلاف وجهات النظر إلى الدين، والفهم لمدلول الثقافة في معناها الشامل.

فالعلاقة بين الثقافة والدين متينة جدا ومتداخلة إلى درجة يصعب معها التمييز والتأكد مما هو الأساس وما هو الفرع، وما هو التابع وما هو المتبوع، وما هو الجزء وما هو الكل.

فكل واحد من أصحاب الاتجاهات الأربعة المذكورة يجد ما يقنعه كي يضع الثقافة جزءا من الدين، أو يضع الدين جزءا من الثقافة، أو يعتبر كلا منهما مستقلا عن الآخر من حيث الموضوع والغاية، أو يعتبرهما متداخلين بمقادير متكافئة دون أن يكون فيها تابع ولا متبوع. ومهما يكن من أمر فإن للثقافة علاقة خاصة وفريدة من نوعها بالدين عموما وبالإسلام على وجه الخصوص، نظرا لطابعه الشمولي الصالح لكل زمان ومكان - في أذهان معتنقيه على الأقل - ولكل مجال من مجالات الحياة: التعبدية والسلوكية والفردية والجماعية والنفسية والجسدية ... التي لها صلة مباشرة أو غير مباشرة بكل قطاعات ومستويات الثقافة.

فمكانة الدين تتحدد بمدى التزام المجتمع به، والدور الذي يلعبه الاعتقاد الديني في أفرادها. فكلما كانت التنشئة الاجتماعية مطعومة بالفكر والاعتقاد الديني، كان للدين دورا هاما وحاسما في نشأة وتطور الثقافة. ومن ثم تتضح العلاقة التوافقية المتكاملة بين الدين والثقافة، من خلال تطعيم الثقافة بالرموز والدلالات الاجتماعية المختلفة التي يوفرها الدين والاعتقاد الديني، في التطور الثقافي وحتى الحضاري.

5. قائمة المراجع:

- 1- غيدنز، أنتوني. (2005) علم الاجتماع. (الطبعة الأولى). ترجمة: فايز الصياغ. (بيروت - لبنان): المنظمة العربية للترجمة.
- 2- الخطيب، سليمان. (دون سنة) أسس مفهوم الحضارة في الإسلام. (الجزائر): ديوان المطبوعات الجامعية.
- 3- لبصير، عبد المجيد. (2010) موسوعة علم الاجتماع. (عين مليلة - الجزائر): دار الهدى.
- 4- أبو زيد، أحمد. (دون سنة) تايلور، سلسلة نوابغ الفكر الغربي. (مصر): دار المعارف.
- 5- ميلاد، زكي. (2012) المسألة الثقافية (الطبعة الثالثة). (المحمدية - الجزائر): دار الشاطبية للنشر والتوزيع.

- 6- المرجع نفسه.
- 7- إليوت، توماس. (2001) نحو تعريف الثقافة، ترجمة: عياد، شكري. (القاهرة - مصر): الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 8- المرجع نفسه.
- 9- ميلاد، زكي. مرجع سابق.
- 10- المرجع نفسه.
- 11- المرجع نفسه.
- 12- إليوت، توماس. مرجع سابق.
- 13- ميلاد، زكي. مرجع سابق.
- 14- المرجع نفسه.
- 15- بيجوفيتش، علي عزت. (1925- 2003 م)، فيلسوف إسلامي، ألف عدة كتب أهمها الإسلام بين الشرق والغرب. ولد في مدينة بوسانا كروبا البوسنية، لأسرة بوسنية عريقة في الإسلام. وهو أول رئيس جمهوري لجمهورية البوسنة والهرسك بعد انتهاء حرب البوسنة والهرسك. وهو ناشط سياسي بوسني، أسس حزب العمل الديمقراطي.
- 16- بيجوفيتش، علي عزت. (1994) الإسلام بين الشرق والغرب (الطبعة الأولى). ترجمة: عدس، محمد يوسف. (بيروت - لبنان): مؤسسة العلم الحديث.
- 17- المرجع نفسه.
- 18- المرجع نفسه.
- 19- راينو، فيليب. (2009) ماكس فيبر ومفارقات العقل الحديث (الطبعة الأولى). ترجمة: جديدي، محمد. (الجزائر): منشورات الاختلاف.
- 20- إليوت، توماس. مرجع سابق.
- 21- المرجع نفسه.
- 22- بلقرينز، عيد الإله. (1998) في البدء كانت الثقافة: نحو وعي عربي متجدد بالمسألة الثقافية، (الدار البيضاء - بيروت): أفريقيا الشرق.
- 23- معتوق، فريدريك. (1991) المعرفة، المجتمع والتاريخ، (طرابلس، لبنان): جروس برس.

24- بلقریز، عبد الإله. المرجع السابق.